التعليم الابتدائي في المغرب القديم خلال الفترة الرومانية

Primary education in ancient Maghreb during the Roman period
L'enseignement primaire au Maghreb ancien à durant l'époque romaine

فارس دعاس[1]*

تاريخ الإرسال: 2019/08/24 **تاريخ القبول:** 2020/06/30 **تاريخ النشر:** 2021/03/15

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على مرحلة التعليم الابتدائي خلال الفترة الرومانية، وإبراز أهم سيماتها ومميزاتها، معتمدين في ذلك على المنهج التاريخي الوصفي، وعلى العديد من المصادر المادية والأدبية، وقد استنتجنا في الأخير أن الإمبراطورية الرومانية استعملت التعليم كوسيلة لدمج ورومنة شعوب المقاطعات التابعة لها، لذا سعت لخلق فئة متعلمة ومثقفة في المقاطعات الإفريقية من أجل أن تنشر الثقافة الرومانية في المنطقة، ومن أجل ذلك وسعت دائرة التعليم خاصة في المرحة الابتدائية، حيث يبدأ الأطفال في التعلم في سن السابعة عند معلم خاص أو عام يعلمهم الكتابة والقراءة والحساب، ويفرغون من هذه المرحلة في سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر، ويدرسون في أمكنة عامة مثل المدارس والمكتبات وحتى المعابد أو في أمكنة خاصة مثل المنازل والمتاجر المستأجرة، وكان التعليم الابتدائي خاص بالذكور والإناث مع تفوق الذكور في العدد، وكان يرافق التلميذ إلى المدرسة المشرف التربوي أو كما يسمى البداغوغ الذي كان له دور تربوي وتعلمي كبير.

كلمات المفتاحية: تعليم ابتدائي؛ مغرب قديم؛ إفريقيا رومانية؛ إمبراطورية رومانية.

Abstract :

The Roman Empire used education as a means of integrating its peoples and provinces, It has therefore sought to establish an educated and educated class in the province of Africa for governance and at the same time easy to govern, To this end, the Ministry of Education has expanded, especially at the primary level, Children begin their education at the age of seven in a private or public teacher teaching them to read, read and count, In public places such as schools, forums, libraries and even temples or in special places such as houses and rented warehouses, Primary education was male and female, with more males than men, He was accompanying the pupil to school or the so-called pedagogy which had an important educational role.

Keywords : Education Elementary ; Ancient Maghreb ; Roman Africa ; Roman Empire.

Résumé :

L'empire romain utilisait l'éducation pour intégrer ses peuples et ses provinces, Elle a donc cherché à créer une classe instruite et éduquée dans la province d'Afrique afin de gouverner et de gouverner dans un souffle facile, A cette fin, il a élargi le domaine de l'éducation, en particulier au niveau

***فارس** دعاس، مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية.

[1] Fares Daas, University Echahid Hamma Lakhdar – Eloued : Algeria, faresdaas3@gmail.com.

élémentaire, Les enfants commencent leur éducation à sept ans avec un enseignant privé ou public qui leur apprend à lire, à lire et à compter, Dans des lieux publics tels que des écoles, des forums, des bibliothèques et même des temples ou dans des lieux spéciaux tels que des maisons louées et des magasins, L'enseignement primaire était dispensé aux garçons et aux filles, les garçons étant plus nombreux, Il accompagnait l'élève à l'école ou à la soi-disant pédagogie qui avait un rôle éducatif important.
Mots clés : Education ; Primaire ; Maghreb ancien ; Afrique romaine ; Empire romain.

مقدمة

إن كلمة "Humanitas" والتي تعني في اللغة اللاتينية القديمة الأنشطة التي يمارسها الإنسان من معرفة وتعليم وثقافة قد تكررت في مختلف النصوص الأدبية اللاتينية القديمة للدلالة على المصطلح نفسه، وأول من أشار إليها من الكتاب هو فارو "varro" والخطيب كيكرو "Cicero"، وهي ترجمة للكلمة الإغريقية القديمة "αιεδιαπ" "paideia" والتي تعني تربية الطفل وتعليمه(M.M Compéré et A. CHervel, 1997: p 7) ، والتي ظهرت أول مرة في النصوص الأدبية في القرن السادس قبل الميلاد عند إيسخلوس "Aisklus" في إحدى مسرحياته، وقد تبلورت منذ القرن الخامس قبل الميلاد لتصبح كل ما يتسلح به الطفل منذ سنوات الدراسة الأولى ليصبح إنسانا فاضلا في المجتمع، وأصبحت بعد ذلك مرادفا لمصطلح الثقافة بمفهومها الشامل. (K. Robb, 1994: p185)

عرف المغرب القديم في الفترة الرومانية انتعاشا كبيرا في المجال الفكري والثقافي بصفة عامة وفي مجال التربية والتعليم بصفة خاصة، حيث كان الطالب يمر على ثلاث مراحل تعليمية كبرى ابتداء من المرحلة الابتدائية ثم المرحلة الثانوية ثم مرحلة التعليم العالي، وكل مرحلة من هذه المراحل لديها خصوصيتها التي تتناسب مع عمر التلميذ أو الطالب، ولقد اخترنا مرحلة التعليم الابتدائي كموضوع لهذا المقال نظرا لأهمية هذه المرحلة وخصوصيتها التربوية، ولكشف خبايا هذه المرحلة من التعليم طرحنا الإشكالية الآتية: ما مدى نجاح مرحلة التعليم الابتدائي في بلاد المغرب القديم خلال الفترة الرومانية؟ والتي تندرج عنها العديد من الإشكاليات الفرعية: ما هو واقع التعليم في المغرب قبل الاحتلال الروماني؟ ما هي أبرز سيمات هذه المرحلة من حيث سن الالتحاق وأماكن التمدرس وتفاصيل اليوم الدراسي وواقع تعليم الفتيات؟

تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها عالجت جزئية هامة ومتخصصة تتمثل في مرحلة التعليم الابتدائي ضمن الجزئية العامة التي تتمثل في واقع التعليم والثقافة في المغرب القديم خلال الفترة الرومانية، ومن أجل الإجابة على الإشكاليات السابقة حاولنا التركيز على العديد من النقاط التي تخص هذه المرحلة بعد أن حاولنا تقديم بعض الإشارات حول واقع التعليم في المغرب قبل الاحتلال الروماني، ومن أهم هذه النقاط نذكر: سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية وسن التخرج منها،

تفاصيل اليوم الدراسي وأماكن التمدرس، بالإضافة إلى دور المرافق أو البداغوغ التعليمي والتربوي وواقع تعليم الإناث في المرحلة ذاتها.

1-واقع التعليم في المغرب قبل الاحتلال الروماني

بدأت حيثيات التعليم تظهر في المغرب القديم منذ العصر الحجري الحديث (النيوليتي)، ويظهر ذلك من خلال مختلف نقائش ولوحات الفن الصخري المنتشرة في كل أرجاء شمال إفريقيا، حيث حرصت الأسرة في تلك الفترة على تربية وتعليم أبنائها مختلف الآداب والأعراف الاجتماعية والدينية الخاصة بالقبيلة (A. Mostefaï, 2013: pp 201-203)، حيث كان الأطفال يشاركون في الطقوس الدينية، مثلما يظهر في مشهد موقع جبارين الذي يصور مجموعة من النساء وهن يصعدن إلى الجبل للقيام ببعض الطقوس الدينية السحرية ويرافقهن في ذلك الأطفال (H. Lhote, 1970: p 103)، وهناك مشهد آخر في موقع أوان تماوت بالأكاكوس الليبية يظهر امرأة في صورة ساحرة يأتيها رجلان بفتاة صغيرة لكي تعلمها الأسرار السحرية والدينية (P. Huard.P et L. Allard, 1977: p284)، وهناك العديد من المشاهد الأخرى التي تؤكد على وجود فعل التربية والتعليم في هذه المجتمعات البدائية.

رغم أن الوثائق والنصوص تبقى شحيحة المعلومات فيما يخص موضوع التربية والتعليم في العهد البوني القرطاجي إلا أن هذا لا ينفي الدور الثقافي والفكري الكبير الذي لعبته قرطاجة في شمال إفريقيا وفي كل حوض البحر الأبيض المتوسط في التاريخ القديم (محمد حسين فنطر، 1999: ص 22)، حيث يشير الباحثان الفرنسيان جلبار شارل بيكار وكوليت بيكار "G et C - C Picard" إلى اهتمام القرطاجين بالتربية والتعليم، وأكدا أن الهدف الأساسي من ذلك هو إعداد الفرد إعداد صحيحا لكي يستطيع أن ينفع نفسه وأن ينفع مجتمعه، من خلال تعليمه اللغة والكتابة البونية وتحفيظه القصص والحكم والطقوس الدينية وعلم الكلام من جهة وتدريبه على التجارة والأسفار الطويلة من جهة أخرى، كما يشير الباحثان نفسهما إلى أن الإناث كذلك لم يكن محرومات من التعليم بل كان يسمح لهن بتعلم الآداب والفنون (G et C -C Picard, 1958: pp 152-153).

تشير النصوص القديمة إلى أن بعض أبناء الطبقات النبيلة قد تلقوا تعليما متفتحا على الحضارات واللغات الأخرى، مثل حنبعل وإخوته الذين استفادوا من تربية متينة جمعت بين الأصالة القرطاجية والتفتح على الثقافة الإغريقية والرومانية، وهي التي جعلت من حنبعل قائدا كبيرا ومفكرا مبدعا (إبراهيم العبيدي التوزري، 1993: ص 21)، كما أشارت النصوص الأدبية القديمة إلى الدور الكبير الذي لعبته المعابد في الحياة الثقافية والفكرية، فبالإضافة إلى أنها مؤسسة دينية كان لها وضيفة أخرى هي التربية والتعليم من خلال استقبال الأطفال وتعليمهم القراءة والكتابة وأسس التربية الدينية.

بقيت الأسرة والقبيلة هي المؤسسة التربوية والتعليمية الوحيدة في فترة الممالك المحلية، حيث كان الليبي القديم متعلقا بأسرته إلى حد العبادة، يحترم قوانينها ويقدس مبادئها، وكان شديد التمسك بمعتقدات آبائه وأجداده وتقاليدهم الدينية والاجتماعية، حتى هيرودوتوس "Herodutus" قال في رجال قبيلة النازامونس "Nasamones" الليبية على أنهم كانوا يذهبون إلى قبور أجدادهم وأسلافهم ويقيمون عليها الصلوات وينامون فوقها ويعتبرون كل ما يأتيهم من أحلام هي أوامر وجب القيام بها (Hérodote ,1850: 4.172)، ولهذه الأسباب لم يكن لليبيين القدماء تربية وتعليم على الطريقة الإغريقية أو الرومانيةبل كانت لهم تربية عائلية قبَلية بامتياز، حيث كانت الأم هي المربية والمعلمة الأولى للطفل، وقد ذكر لنا التاريخ كيف أن الملك النوميدي ماسينيسا كان يأخذ الحكمة من أمه (مها عيساوي، 2013: ص 105)، وكان الأب في الأسرة الليبية متمما ومكملا لهذه التربية الأولى باعتباره صاحب الكلمة العليا في العائلة.

كانت التربية والتعليم في فترة الممالك المحلية قائمة على اللعب والتقليد ثم المحاكاة والمشاركة الجماعية، فالطفل يقضي طفولته يحاكي الكبار ويقلدهم في أيام الصيد والقنص والتدريب على الحروب، وعندما يبلغ سن المراهقة يبدأ في ممارسة هذه الأعمال بنفسه دون الحاجة لمن يساعده، ونفس الشيء بالنسبة للتربية الدينية فالأطفال يشاركون في الطقوس الدينية منذ الصغر ويتعلمون كيفية القيام بها لا شعوريا نظرا للتقليد والمحاكاة وتكرار الظاهرة (إبراهيم العبيدي التوزري، 1993: ص 13)، وقد تكلمت المصادر عن هذه المشاركة في الطقوس الخاصة بالاستمطار حيث يشارك الأطفال رفقة النساء في طقس أنزار من أجل درأ الجفاف وإخصاب الأرض ونزول المطر. (G. Camps et S. Chaker 1989: pp. 795-797).

كان الليبيون القدماء يتداولون اللغة الليبية "Le Libyque"، وقد كانت هذه الأخيرة لغة مكتوبة بحكم وجود العديد من النقائش الليبية المنتشرة في معظم أرجاء شمال إفريقيا، ولقد استمر التعامل بهذه اللغة والكتابة عدة قرون، وقد تداولتها الأجيال التي مرت على المغرب القديم جيل بعد جيل ولا تزال آثارها موجودة لحد الآن، في صورة اللهجات الأمازغية الحالية، وإن دلت هذه الاستمرارية عن شيء فإنما تدل على أن اللغة والكتابة كانت تلقن وتعلم بطريقة مباشرة وغير مباشرة بين الأجيال، وقد تفاعل قدماء الشمال الإفريقي مع اللغات والكتابات الوافدة فاكتسبوها وأتقنوها مثل اللغة والكتابة البونية واللاتينية (العربي عقون، 2015: ص 25-26).

انحصر التعليم المدرسي على بعض أبناء الملوك والقادة، مثل الملك غايا الذي أرسل ابنه ماسينيسا في صغره إلى قرطاجة لكي يتعلم في مدارسها ويكتسب أصول التربية البونية وذلك لكي يؤهله في ما بعد لممارسة السياسة وتولي الحكم (فتيحة فرحاتي، 2007 : ص 60-61)، حتى وصفه المؤرخ الفرنسي كامبس "G. Camps" بأنه كان بونيا شكلا ومضمونا أي متشبعا بالثقافة القرطاجية (G. Camps, 1961: p. 46)، وقد وصف المؤرخ بلينيوس الأكبر "Plinius Secundus"

الملك النوميدي هيمصال الثاني على أنه تربى على الثقافة البونية وتشبع بالثقافة الإغريقية واللاتينية مما جعله كاتبا ومؤرخا(Pline, 1892: XXVII, 22)، ومثل الملك يوبا الثاني الذي تربى في قصر الامبرطور الروماني أوكتافيوس أوغسطس "Auctavius Augustus" وتلقى العلوم من طرف بعض المعلمين والأدباء المشهورين من بلاد الإغريق وروما، وأصبح بعد ذلك كاتب وأديبا ومؤرخا له العديد من المؤلفات لكن للأسف ضاع أغلبها (D W. Roller , 2004: p. 59).

تسربت الثقافة الإغريقية والهلينيستية إلى المغرب القديم عبر قورينا والمدن التي أسسها الإغريق في المنطقة بداية من القرن السادس قبل الميلاد، خاصة بعد ازدهار التبادل الثقافي بين قورينا وأثينا من جهة وبين قورينا والإسكندرية من جهة أخرى، فانتشرت العديد من المدارس العلمية والفلسفية في المدن الإغريقية في المغرب، مثل المدرسة الفلسفية القورينية والمدرسة العلمية القورينية وغيرها، وانقسمت مراحل التعليم الهليني في المغرب القديم إلى ثلاث مراحل أساسية بداية بالتعليم الابتدائي عند المعلم الذي يدعى "Primus Magister" وتستمر هذه المرحلة خمس سنين يتعلم فيها الطفل الكتابة والقراءة والحساب، والمرحلة الثانية هي مرحلة التعليم المتخصص أين يتعلم فيها الطالب الأدب والفن والجغرافيا والتربية البدنية، أما المرحلة الأخيرة فهي مرحلة التعليم العالي فيتعلم الطالب الريطوريقا والتي تشمل الأخلاق والطب والتاريخ والجغرافيا وفن الخطابة والفلسفة والمسائل السياسية والقضائية وغيرها من المواد (عبد السلام بن ميس، 2010: ص 33-36).

2-واقع التعليم الابتدائي في المغرب القديم خلال الفترة الرومانية

لم تختلف كثيرا مميزات التعليم الابتدائي في بلاد المغرب خلال الفترة الرومانية عن مميزاته خلال الفترة الإغريقية، لكن لا ينفي هذا أن لديه بعض الخصوصيات، وفي النقاط التالية سنحاول وصف وتحليل أهم المواضيع التي تخص التعليم في هذه المرحلة.

2-1. سن الالتحاق بالمدرسة وسن التخرج منها:

اختلف المفكرون والفلاسفة الإغريق والرومان القدماء حول السن التي يجب أن يلتحق فيها الطفل بالمدرسة الابتدائية والسن التي يجب أن يتخرج منها، حيث يوصي الفيلسوف أفلاطون بأن السن المناسبة للالتحاق بالمدرسة هي السادسة من العمر، ويتفق معه أرسطو في فكرة أن الطفل يجب أن يستهل تعليمه في البيت في سن الرابعة ولا يلتحق بالمدرسة إلا في سن السابعة، بينما يؤكد بعض المفكرين الرومان إلى أنّ السن المناسبة للالتحاق بالمدرسة هي حين يصبح الطفل قادر على التمييز بين الأشياء ويصل إلى حقيقة الإدراك والفهم أي بين السادسة والسابعة من العمر، أما السن التي يجب أن يفرغ فيها التلميذ من المدرسة الابتدائية فيشير أرسطو إلى سن الرابعة عشر أو الخامسة عشر كحد أقصى، حيث يصبح الطفل مؤهلا لتلقي علوم أخرى تتناسب مع سنه في مرحلة أخرى (مصطفى محمد قنديل زايد، 2004: ص 31-33).

تشير أغلب النصوص الأدبية اللاتينية إلى أن سن الالتحاق بالمدرسة في روما القديمة كان في السابعة من العمر، إلا أن الأمر قد يختلف بين فترة وفترة أخرى من تاريخ روما، ففي العهد الملكي والجمهوري قد يتأخر الطفل حتى سن العاشرة للالتحاق بالمدرسة الابتدائية (H-I. Marrou, tome 2, 1984: p. 265)، ولا يختلف الأمر بالنسبة للمقاطعات الرومانية حيث يشير الباحث أمان "A-G. Hamman" إلى سن الالتحاق بالمدرسة في مقاطعة إفريقيا الرومانية يبدأ في السابعة من العمر (A-G . Hamman, 1986: p. 105)، ومثال ذلك هو الكاتب أبوليوس المداورشي الذي التحق بالمدرسة الابتدائية في سن السابعة في مسقط رأسه مادوروش (P. Monceaux, 1999: p. 267)، ويتفرغ الطفل من المدرسة الابتدائية في مقاطعات إفريقيا الرومانية في سن الثالثة عشر من العمر (H-I. Marrou, 1984: p. 265)، أي عندما يصبح التلميذ مراهقا، وهي السن التي كان الرومان يطلق عليها مصطلح "adulescens" أي الشاب المراهق في مرحلة النمو الجسدي، بينما كانوا يطلقون مصطلح "imbubes" على الصبي الذي لم يصل إلى سن البلوغ أو الطفل الذي مازل يدرس في المرحلة الابتدائية.

تختلف سن الالتحاق وسن المغادرة من المدرسة عند الأطفال الفقراء عن باقي الأطفال الآخرين، ففي كثير من الأحيان قد يتأخر الأطفال الذين ينتمون لعائلات فقيرة عن الالتحاق بالمدرسة نظرا لمحدودية إمكانياتهم المادية ومشقة تحمل تكاليف الدراسة، فربما يصل الطفل إلى سن العاشرة أو الحادية عشر ولم يلتحق بالمدرسة الابتدائية بعد ولا يفرغ منها إلا في سن السادسة عشر أو السابعة عشر باعتبار أن سنوات الدراسة في مرحلة التعليم الابتدائي هي خمس سنوات (F. Talbot, 2007: p. 78)، وفي هذا الصدد يتكلم القديس أوغسطينوس عن والده باتريكوس "Patricius" الذي كان محدود الدخل ولم يستطع تأمين تكاليف الدراسة لابنه، الذي اضطر لتأخير مواصلة دراسته ولم يذهب لقرطاج إلا في السادسة عشر من العمر بفضل مساعدة أحد أصدقاء العائلة الذي يدعى رومانيوس "Romanianus" والذي دفع التكاليف ومكن أوغسطينوس من إكمال دراسته الثانوية، في هذا الصدد يقول القديس:"كنت في ذلك الوقت الشاب الفقير الذي أتيحت له فرصة الدراسة في مدينة أجنبية، وعندما فقدت إعانة أبي وجدتك أنت (مخاطبا صديق العائلة) الذي منحتني مكانا في منزلك وحتى في قلبك، وشجعتني بنصيحتك ومنحتني ثروتك من أجل إكمال هدفي ....." (Augustin, 1964: 3.5).

بقي التعليم الابتدائي في مقاطعة إفريقيا الرومانية حكرا على أبناء الأسر الموفورة وعلى أبناء المدينة، بينما حرم أغلب الأطفال في الأرياف من التعليم خاصة أبناء السكان المحليين، وهي استراتيجية مقصودة من السلطة الرومانية التي كان هدفها الوحيد من التعليم هو تكوين طبقة من النخبة تستطيع أن تنشر الثقافة الرومانية في المنطقة، وهذه الطبقة يجب أن تتمتع بالمواطنة الرومانية، وهي الصفة التي تغيب عن السكان المحليين وأبنائهم. (F. Talbot, 2007: p. 78)

2-2. تفاصيل اليوم الدراسي

أورد الباحث مصطفى محمد قنديل زايد نقلا عن الشاعر الروماني بلاوتونيوس "Blatonus" تفاصيل اليوم الدراسي في التعليم الروماني في إحدى مسرحياته حيث يقول: " إذا لم تصل (يخاطب التلميذ) مبكرا إلى المدرسة قبل شروق الشمس فإن معلم التربية البدنية يلحق بك عقابا صارما ....، وبعد عودتك إلى المنزل تذهب لتجلس على كرسي أمام مدرسك: وعندما تخطئ في مقطع لفظي واحد عند قراءتك لكتاب فإن المدرس سوف يجلد ظهرك بالسوط حتى يجعله مثل عباءة المربية البالية ..." (مصطفى محمد قنديل زايد، 2004: ص 38-39).

ذكر المؤرخ مارو نقلا عن الشاعر الروماني لوكيانوس "Lucianus" الذي عاش في القرن الثاني ميلادي تفاصيل اليوم الدراسي للتلميذ في عصره، حيث قال: "أن يوم التلميذ كان شاقا جدا حيث يبدأ مع الفجر وذلك بالذهاب رفقة البداغوغ (المربي) إلى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة، ثم يعود إلى المنزل من أجل تناول وجبة الغداء وبعدها يذهب إلى البلايسترا في النصف الثاني من اليوم ليمارس الألعاب الرياضية ولا يعود إلى المنزل إلا في عز المساء منهكا لينام مباشرة بعد وجبة العشاء" .(H-I. Marrou, 1984: p. 398)

ذكر الباحث مارو تفاصيل اليوم الدراسي في المقاطعات الرومانية نقلا عن كتاب المحادثة لأحد الرجال الرومان الذي يروي ذكرياته عندما كان صغيرا قائلا: "عندما أستيقظ أنادي العبد وأسمح له أن يفتح النافذة، ثم أجلس على جانب السرير، وأطلب منه أن يجلب جوربي وحذائي لارتدائهما لأن الجو بارد جدا، ثم أغسل وجهي وأسناني وأنفي، ثم أنزع لباس النوم وألبس ردائي وحزامي وأعطر نفسي وأمشط شعري وأرتدي عباءتي البيضاء وأضع الوشاح على رقبتي وأغادر الغرفة رفقة البداغوغ والخادمة، ثم ألقي التحية على أبي وأمي وأقبلهما، ثم أحضر القلم والمحبرة وكتاب التمارين وأعطيهم إلى العبد، وأتبع البداغوغ في رحلة السير إلى المدرسة، ثم ألتقي مع زملائي ونتبادل التحية، وحينما نصل إلى المدرسة أنزع عباءتي في الصالة وألقي التحية على الأستاذ وهو يرد التحية، والعبد يمسك ألواح الكتابة والقلم والمحبرة والمسطرة، ثم تحدث حالة من الفوضى بين الزملاء لتنافسنا حول المقاعد ومن يأتي الأول يأخذ مكان زميله ....، ثم عندما أنهي دروسي أطلب من المعلم العودة إلى البيت من أجل وجبة الغداء، فيسمح لي الأستاذ فأعود رفقة البداغوغ وأتناول الوجبة المكونة من الخبز الأبيض والبيض والجوز، وبعد ذلك نعود إلى المدرسة في الفترة المسائية لمواصلة الدراسة وبعد الانتهاء من هذه الفترة يأتي وقت الحمام وأتبع خادمي الذي يحمل المنشفة وأتسابق مع زملائي وأقول لمن يمسكني حماما هنيئا وعشاءا طيبا...." . (H-I. Marrou, 1984: p. 378)

يُستنتج من خلال هذه النصوص بعض المعلومات عن اليوم الدراسي في المدرسة الرومانية، حيث يبدأ اليوم الدراسي في الصباح الباكر قبل شروق الشمس وذلك حتى في فصل الشتاء، حيث تذكر بعض النصوص أن الطفل يستعمل المصباح

التي تتصاعد منه الأدخنة لكي يهتدي به طريق المدرسة في فصل الشتاء، ويُستنتج كذلك أن المنهج الدراسي في مرحلة التعليم الابتدائي كان قوامه تعلم القراءة والكتابة، ويتم ذلك على فترتين صباحية ومسائية، وتفصل بينهما فترة راحة يتناول فيها الطفل وجبة الغداء، وينتهي اليوم الدراسي بحمام ساخن يزيل تعب اليوم الشاق، كما ذكرت هذه النصوص العديد من الأدوات المدرسية التي كان يستعملها الطفل مثل القلم والمحبرة وألواح الكتابة والمسطرة وكتاب التمارين ...الخ، كما تكلمت هذه النصوص عن البداغوغ الذي يرافق الطفل إلى المدرسة ويشرف عليه في البيت، وتشير النصوص أن البداغوغ في الغالب يكون من أصول إغريقية (مصطفى محمد قنديل زايد، 2004: ص 42-43).

كانت المدارس الرومانية في مختلف المقاطعات الإفريقية تغلق أبوابها في فصل الصيف من نهاية شهر جويلية وحتى منتصف أكتوبر، وكانت هناك إجازات أسبوعية كل يوم سبت، وربما اختاروا هذا اليوم بالذات نظرا لتأثر المجتمع الروماني باليهود الذين كانوا لهم عطلة في اليوم ذاته، وكانت هناك إجازات خاصة بكل تلميذ في عيد ميلاده أو بعض الأعياد الخاصة بأسرته، وقد يرخص له الغياب والراحة أثناء المرض أو السفر أو ما شابه ذلك (H-I. Marrou, 1984: p. 149)، كما تكلمت النصوص عن المدارس التي كانت تقيم الإحتفلات لتكريم الناجحين في نهاية كل سنة من أجل تحفيزهم ودفعهم إلى الاجتهاد أكثر. (شافية شارن وبلقاسم رحماني ومحمد الحبيب بشاري، 2007: ص 261)

كانت طريقة تلقين الدروس في المدرسة تقليدية بواسطة التلقين الشفوي والقراءة بصوت مرتفع من طرف المعلم، مما يسمح للتلاميذ بطرح الأسئلة والمشاركة بالمناقشة وفتح باب الحوار بين المعلم والتلاميذ، حتى يصل درس الأستاذ إلى أكبر عدد منهم (بنت النبي مقدم، 2018: ص 324)، كما يُجبر التلاميذ على حفظ الدروس والنصوص، ويبدأ التلميذ في المدرسة الابتدائية بدراسة القراءة والكتابة وتعلم الحساب من خلال إجراء العديد من التمارين وحفظ القواعد الحسابية عن ظهر قلب (R. Van den Bergh, 2000; pp. 95-96)، وفي سن 11-15 يدرس التلاميذ مادة النحو من خلال الاطلاع على كتب فريجيل وتيرانوس "Tiranus" وكيكرو والقيام بعمليات شفوية وكتابية، كما استعملت الكتب المدرسية التي كانت في بادئ الأمر إغريقية ثم أصبحت لاتينية فيما بعد. (بنت النبي مقدم، 2018: ص 324)

كان الأطفال يجبرون على التعلم وإلا مصيرهم السوط والعقاب لدرجة أن الواحد منهم يفضل الموت على العودة إلى سنوات الدراسة، وأشار القديس أوغسطينوس في العديد من المواقع لهذه الظاهرة، فهو يحكي عن تجربته حين أفحمه المعلم ضربا وقال له أن هذا في مصلحتك، وكان العقاب الذي تلقاه بوسائل مشينه حسب وصف القديس لأنه تلقاه أمام والده الذي سخر منه أمام جميع الحاضرين، وتحدث كذلك أوغسطينوس عن تجربته كمعلم في قرطاجة حيث ساد العنف المدرسي داخل وخارج المدرسة وأعطى العديد من الأمثلة عن تلاميذه والأعمال الذين كانوا يقومون بها (F. Talbot, 2007: pp. 95-96)، ويقول أوغسطينوس في موضع أخر: " من منا لا تروعه طفولته ويتمنى الموت قبل أن يعيشها من جديد، و قد

ورث هذا العنف عن طريق الأجداد والمعلمون الأوائل الذين كانوا يعتقدون أنه الأسلوب الأمثل لتربية وتعليم أمثل.". (أوغسطين، 1991: ص 263)

2-3. أماكن التعليم

تشير بعض النصوص الأدبية إلى أن القرن الرابع ق م هو القرن الذي ظهرت فيه المدرسة الابتدائية التي تعلم الأطفال القراءة والكتابة، وابتداء من القرن الثاني ق م عمت المدارس الابتدائية في روما والتي كانت أساليبها ومناهجها قائمة على اللغة الإغريقية لأن المعلمين كانوا كلهم إغريقا. (R. Van den Bergh, 2000: p. 357)

فشلت الآثار إلى حد الآن في إيجاد أمكان كانت مخصصة بشكل صريح للتعليم الابتدائي في مقاطعات إفريقيا الرومانية وفي كل العالم الروماني القديم، على عكس العالم الإغريقي الذي تعج آثاره بالنقوش ذات الطابع التعليمي الخاصة بالتربية البدنية وصالات العرض والمدارس العمومية، لكن هذا لا ينفي وجود أماكن للتعليم في العالم الروماني بشكل عام وفي مقاطعات إفريقيا الرومانية بشكل خاص. (F. Talbot, 2007: p. 52)

كان لمعلم المدرسة الابتدائية "Ludi Magistri" خياران بالنسبة لأماكن التعليم، فقد يقدم دروسه في بيت التلميذ خاصة لما يتعلق الأمر بأبناء العائلات الغنية، وقد يقدم دروسه في الخارج في أحد أطراف المدينة، ويكون هذا المكان مكشوفا بغرض جلب طلاب جدد، وربما يستأجر المعلم أحد المتاجر ويجعلها قسما دراسيا يمارس فيه مهنته، وربما يستغل أحد الأروقة الضيقة من المدينة ويسترها برداء لمنع تطفل العامة ومنع تسرب الحشرات إلى الداخل. (A-G. Hamman, 1986: p. 105)

لم تتدخل الدولة في مسألة التعليم إلا في حالات قليلة، إلا أن البلديات كانت تهتم بإعادة هياكل التعليم وانتداب المعلمين ودفع رواتبهم، وقد يتطوع أحد الأغنياء أو مجموعة من الأفراد لتأسيس المدرسة، وتوجد العديد من النقوش البونية واللاتينية التي عثر عليها في شمال إفريقيا التي أشارت إلى شخصيات ساهمت في عملية إقامة منشآت ثقافية عامة، مثل نقش رأس الحدابة بمنطقة نزوهة في تونس ونقوش وادي العامود في إقليم المدن الثلاث في ليبيا. (S. Gsell, 1956: p. 92)

قدمت لنا النصوص الأدبية بعض أمكان التعليم في المدن الإفريقية القديمة خاصة في مدينة قرطاج، حيث حدد أبوليوس المداورشي بعض أماكن التعليم في هذه المدينة، وكشفت كتاباته عن أسماء بعض الأماكن العامة في قرطاج التي كانت تُنقل فيها المعرفة كالمسرح والمكتبة ومعبد إسكالابيوس "Esculapus"، وكانت هذه الأماكن دافعا أساسيا في ازدهار الثقافة والتعليم في قرطاجة، لأن هذه الأماكن تعد أقطاب ثقافية ودينية يقصدها العديد من الناس والنخب. (Apulée de Madaure, 1960: 16.18)

تكلم المؤرخون على نموذج مدرسة مدينة قورينا التي أسسها الفيلسوف أرستيوس، والتي ارتادها العديد من التلاميذ والطلاب وكان لها دور كبير في انتشار الثقافة الإغريقية في المنطقة، حيث ارتكز التعليم فيها حسب ما جاء به دستور

بطليموس، الذي ينص على أن الذين يقومون بالتعليم الأولي هم معلمو التربية البدنية الذي يعلمون التلاميذ استخدام القوس وركوب الخيل والمصارعة وذلك شبيه لما كان يحدث في المقاطعات الإغريقية، ومن أشهر المدارس كذلك مدرسة مداوروش التي يقصدها الطلاب من كل جهة حيث كانت ذائعة الصيت، حتى أن القديس أوغسطين درس فيها. (شافية شارن وبلقاسم رحماني ومحمد الحبيب بشاري، 2007: ص 260)

تكلم الباحث الفرنسي جلبار شارل بيكار عن أول مركز تعليمي في قرطاج في الفترة الرومانية وسماه المنتدى، وهو عبارة عن مجموعة من الغرف المتجاورة التي يستأجرها المعلمون من أجل التدريس، كما أشار كذلك إلى الحمامات التي تستعمل هي الأخرى كفضاء للتعليم وقد أعطى مثال حمام أنطونينين "Antonin" في قرطاج. (G-C. Picard, 1965: pp. 161-162)

لعبت المكتبات دورا كبيرا في العملية التعليمية في مقاطعة إفريقيا الرومانية، حيث تزخر شمال إفريقيا بالعديد من المكتبات التي تعود لتلك لفترة، وتبقى مكتبة تيمقاد واحدة من أفضل الأمثلة عن المكتبات التي كانت تعتبر كمبنى عام مخصص للتدريس، وقد بنيت هذه المكتبة بفضل التبرع الذي قدمه كوينتيانوس فلافيوس روغاتيانوس Quintianus Flavius "Rogatianus" أحد الشخصيات الأرستقراطية في مدينة تيمقاد، وتوجد العديد من النقائش اللاتينية على جدران هذه المكتبة والتي تؤكد توافد التلاميذ والطلاب عليها. (N. Tlili, 2000: pp. 151-175)

يشير القديس أوغسطينوس إلى استحداث بعض المدارس النظامية في بعض المدن الرومانية في مقاطعة إفريقيا والتي تدرس قواعد اللغة اللاتينية حيث قال في هذا الصدد: "..إني أحب اللغة اللاتينية بشغف لكن ليس كما درسها المعلمون الأوائل ولكن كما تدرس في نظامها المستقر...". (Augustin, 1964: 1.13.20)

2-4. البداغوغ ودوره التعليمي والتربوي

كانت الأسر الأرستقراطية في مقاطعة إفريقيا الرومانية تملك العديد من الخدم والعبيد الذين يشرفون على خدمتهم، وكان لهم بيت خاص بهم يسمى "Paedagigium"، وفي الغالب كان يُربى أبناء العبيد على كيفية إتقان وظيفتهم في خدمه أسيادهم، كما يختار أحد العبيد المثقفين من أجل أن يرافق ابن السيد في ذهابه وعودته من المدرسة والإشراف على مراجعة دروسه، ويسمى هذا الخادم بالبداغوغ "paedagogus" والتي تعني في اللغة اللاتينية العبد الذي يرافق الطفل إلى المدرسة، وقد نقلت هذه الكلمة عن اللغة الإغريقية من الكلمة òşϒϵϒıδαπα والتي تعني ملازم الطفل (مصطفى محمد قنديل زايد، 2004، ص 57-59)، وقد ذكرت هذه الوظيفة أول مرة عند المؤرخ هيرودوتوس "Herodutus" في القرن الخامس قبل الميلاد، حين ذكر البداغوغ الذي كان يشرف على أبناء ثميستوكليس. (Hérodote, 1850: VIII, 75)

ينظر للبداغوغ قبل تعينه للإشراف على أي طفل إلى أخلاقه وإلى إمكانياته الثقافية لضمان حماية التلميذ، وتشير أغلب النصوص الأدبية إلى أن الرومان كان يعتمدون على العبيد الإغريق كبداغوغ مرافقين لأبنائهم، حيث ذكر خطيب روما كيكرو صديقه أتيكوس "Atticus" الذي اتخذ بداغوغ إغريقي كمرافق لابنيه، وذكر بلينيوس الأكبر بنات صديقه اللاتي كان لهن معلم إغريقي خاص يعلمهن الفنون والنحو واللغة. (R. Van den Bergh, 2000: p. 355)، وتكلم القديس أوغسطينوس عن وضيفة البداغوغ في مقاطعات إفريقيا الرومانية قائلا:" البداغوغ لا يقتصر دوره على الإشراف على الطفل في البيت فقط، بل هو الذي يرافقه عند الذهاب إلى المعلم، والطفل عندما ينهي تعليمه يصبح غير خاضع لأي سلطة تربوية." (F. Talbot, 2007: p. 78)

توجد بعض النقائش اللاتينية التي تتحدث على البداغوغ في مقاطعات إفريقيا الرومانية، مثل النقيشة التي وجدت في مدينة دوقة، والتي جاءت تحت رقم 1506 من الجزء الثامن من مدونة النقائش اللاتينية والتي تتحدث على كورنيليا فورتونا "Cornelia Fortunata" (الشكل رقم 1). والنقيشة التي وجدت في تبسة تحت رقم 3322 من المدونة نفسها، والتي تتحدث على البداغوغ كايوس أزياتسكوس فيلكس "Caius Asiaticus Felix" (الشكل رقم 2) (بنت النبي مقدم، 2018: ص 324)

الشكل رقم 1: نقيشة رقم 1506

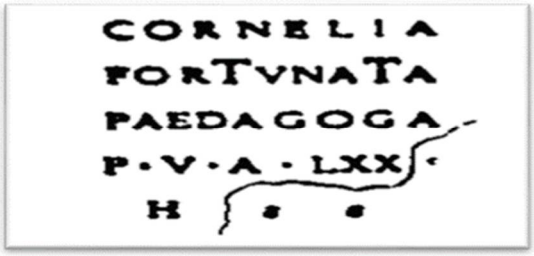

المصدر: CIL, VIII, 1506

الشكل رقم2: نقيشة رقم 3322

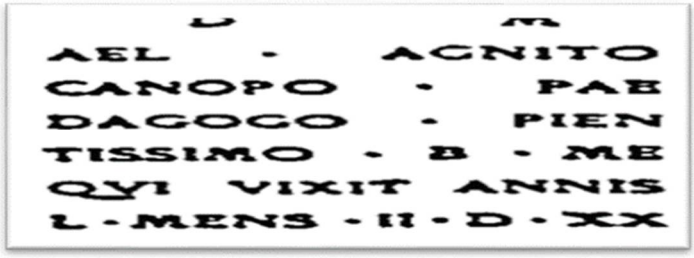

المصدر: CIL, VIII, 3322

كان للبداغوغ دوران: دور تعليمي ودور تربوي، فهو المسئول على رعاية الطفل والحفاظ على سلوكه والمسؤول أيضا على مرافقته إلى المدرسة، حيث يجلس في حجرة الدرس بالقرب من تلميذه وينظر بعناية إلى الأستاذ ويتلقى العلوم مثما يتلقى التلميذ لأنه هو من سيشرف على مراجعة دروسه في البيت، ولابد أن تكون له دراية بالدروس والمناهج التي يتلقاه تلميذه، وتشير بعض النصوص الأدبية إلى أن البداغوغ أصبح فيما بعد مساعد للمعلم في المدرسة، وكان البداغوغ من الجنسين إناثا وذكورا فالإناث يشرفن على البنات والذكور يشرفون على الصبيان. (مصطفى محمد قنديل زايد، 2004: ص 67-68)

2-5. تعليم البنات

تشير النصوص الأدبية إلى أن المرأة الرومانية لم تحض بحقها في التعليم مثلما حضي به أخوها الرجل، وذلك بسبب أن جل وقتها كان في البيت من أجل تربية أبنائها والقيام بأعمال المنزل، كما أن خروج البنات للتعليم كان محفوفا بالمخاطر فقد كان يخشى عليهن من الخطف في الشارع ويخشى عليهن حتى من المعلم في حد ذاته وهو الشيء الذي حد من تعليمهن، لكن هذا لا يعني أن كل البنات كن أميات بل كن يتعلمن خاصة بنات الطبقة الأرستقراطية. (مصطفى محمد قنديل زايد، 2004: ص 67-68)

كان الهدف الأساسي من التعليم الروماني هو إعداد الرجال للحياة السياسية، وتم استبعاد النساء منه، لأنهن كنّ يتزوجن في سن مبكرة جدا مما يعيقهن في متابعة دراستهن، لكن هذا لا يعني استبعادهن نهائيا، بل ذكرت النصوص الأدبية العديد من الشخصيات الأنثوية المتعلمة والمثقفة سواء بالثقافة الإغريقية أو اللاتينية، والتي تؤكد أن هناك ثلة من البنات تعلمن مثلهن مثل الذكور ووصلن مبلغا كبيرا في العلم (F. Talbot, 2007: p. 37)، ومن أمثلة ذلك نذكر الأديبة سانت بيربتوا "Sainte perpetue" والتي كان لها بعض الروايات الأدبية، هذه الأخيرة تتميز بالنثر الإيقاعي وأسلوب الحوار والجدال، والتي تظهر مدى تمكنها في اللغة وبيان الأسلوب وتظهر أيضا أنّ تدرجها في التعليم كان ممتازا، كما ذكر أبوليوس المداورشي شخصية أيميليا بيدنتيلا "Aemilia Pudentella" وهي امرأة ثرية من فئة الفرسان وهي أيضا متعلمة ومثقفة وتتقن الأدب اللاتيني والإغريقي. (Apulée de Madaure, 1960: 30.11.82)

ذكر المؤرخ تالبو "F. Talbot" نقلا عن كونتيليان "Quintilien" أن الأسر الغنية في مقاطعة إفريقيا الرومانية كانت تسهر على تعليم بناتها لضمان أشياء عديدة نذكر منها: عفة الزوجة، حسن إدارة الأسرة، الشجاعة، تعليم الأولاد فيما بعد ...الخ، وتعليم البنات على حد قول كونتيليان كان خاص إلا بالأثرياء، لأنهم كانوا يستطيعون دفع تكاليف التعليم ويمكنهم استئجار المرشدة التربوية التي ترافق البنت في تعليمها. (F. Talbot, 2007: p. 38)

خاتمة

من خلال ما سبق عرضه نستنتج أن التعليم في المغرب القديم كان سابق للاحتلال الروماني بكثير حيث بدأت حيثياته عند الانسان الذي عاش في الفترة النيوليتية، وقد تبلورت معالمه في قورينا وفي قرطاج منذ الألفية الخامسة قبل الميلاد، وقد بلغ أوج ازدهاره خلال الفترة الرومانية لأن الرومان حاولوا تدعيم الثقافة والتعليم بهدف خلق فئة مترومنة تساعدها على بسط نفوذها على المنطقة، وتنقسم مراحل التعليم الرومانية إلى ثلاث مراحل أساسية أهمها مرحلة التعليم الابتدائي.

اقتصرت مرحلة التعليم الابتدائي على أبناء الطبقة الثرية والأرستقراطية واستثنى منها أبناء الفقراء وأبناء السكان المحليين، ويبدأ التلميذ في الالتحاق بمعلم المرحلة الابتدائية في سن السابعة ولا يغادر منها إلى في سن الثالثة عشر أو الرابعة

عشر، وهناك العديد من أماكن التعليم في المدن الرومانية في المغرب القديم من أشهرها مدرسة مداوروش ومدرسة قورينا .... الخ، وينقسم اليوم الدراسي في المدرسة الرومانية إلى فترتين صباحية ومسائية، يدرس فيها التلميذ القراءة والكتابة والحساب ويتعرض للعقاب في حالة تقصيره، ويرافق التلميذ إلى المدرسة البداغوغ الذي كان له العديد من الأدوار التعليمية والتربوية، ولم تحض البنات بحقهن بالتعليم مثل الصبيان لكن هذا لا ينفي وجود بعض الشخصيات الأنثوية المثقفة في شمال إفريقيا.

وكإجابة على الإشكالية الرئيسة يمكننا قول أنّ مرحلة التعليم الابتدائي في المغرب القديم خلال الفترة الرومانية كانت ناجحة إلى حد ما بالرغم من أنها اقتصرت على فئة معينة دون الفئات الأخرى وعلى الذكور دون الإناث، لأنها وفرت كل السبل والإمكانيات للطفل من أجل أن يكون له تحصيل علمي ناجح بداية بالبداغوغ والمعلم والاستعانة بالكتب والأفكار الإغريقية التي أثبتت نجاحها سابقا وأنجبت لها حضارة يضرب بها المثل في الفكر والفلسفة والثقافة، لذا فنجاح أي منظومة تربوية قديمة أو حديثة يتعلق أساسا بنجاح المرحلة الابتدائية منها.

قائمة المراجع:

- إبراهيم العبيدي، التوزري، (1993). تاريخ التربية في تونس، تونس: الشركة التونسية للتوزيع.
- أوغسطين، (1991)، اعترافات القديس أوغسطين، تر يوحنا الخوري، ط 4، بيروت: دار المشرق.
- بن ميس، عبد السلام (2010)، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة الأمازغية القديمة (دراسة في العلوم الصورية وتطبيقها)، الرباط: منتدى سور الأزيكية.
- شارن، شافية ورحماني، بلقاسم وبشاري، محمد الحبيب (2007)، الاحتلال الاستيطاني وسياسة الرومنة، الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.
- عقون، العربي، (2015)، "المجتمع والثقافة في الشمال الإفريقي القديم نظرة موجزة في إسهامات الجزائر في الحضارة الإنسانية"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد 43، قسنطينة 2، ص ص 15-39.
- عيساوي، مها (2013)، "عادات وتقاليد ريفية معاصرة في الشرق الجزائري"، مجلة الثقافة الشعبية، عدد 13، البحرين، ص ص 104-115.
- فرحاتي، فتيحة (2007)، نوميديا من الملك غايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213 ق م – 46 ق م، الجزائر: منشورات أبيك.

- فنطر، محمد حسين (1999)، الحرف والصورة في عالم قرطاج، تونس: منشورات أليف.
- قنديل زايد، مصطفى محمد (2004)، التربية والتعليم في الحضارة الإغريقية والرومانية دراسة وثائقية وأثرية، القاهرة: المكتبة الأنجلومصرية.
- مقدم، بنت النبي (2018)، "الحياة الأدبية والفكرية في الجزائر القديمة"، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، العدد 8، جامعة وهران، ص ص 319-348.

باللغة الأجنبية:

- A.A, Compéreet Chervel. A. (1997), "les humanités dans l'histoire d'enseignement Français", n° 74, p-p 5-38.
- A, Mostefaï (2013), "les représentations féminines d'Ozan Ehéré (Tassili –n- Azzjer Sahara central Alg)", Paris, 201,203. les cahiers de l'AARS, 16, p-p 207-230.
- A-G, Hamman (1986), la vie quotidienne au temps de saint Augustine, Paris: Hachette.
- Apulée de Madaure. (1960), Apologie ; Florides, Texte établi et traduit par Paul VALLETTE, Paris: Les Belles Lettres.
- Augustin (1964), les confessions, II, Texte établi et traduit par Joseph TRABUCCO, Paris: Garnier-Flammarions.
- D.W, Roller (2004), the world of Juba II and Cleopatra Sellne, London: Taylor Francis Library .
- F, Talbot (2007), Apprendre et enseigner en Afrique proconsulaire L'éducation classique et la vie municipale africaine, du second siècle à la fin du monde antique, QUÉBEC: UNIVERSITÉ LAVA.
- G et C – C, Picard (1958), la vie quotidienne À Carthage au temps d'Hannibal IIIe siècle avant Jésus-Christ, Paris: Hachette.
- G, Camps (1961), Massinissa ou les débuts de l'histoire : aux origines de la berberie, Alger: imprimerie officielle.

- G, Camps, et S, Chaker (1989), "Anzar", E .B, vol 6, p-p 795-798.
- G-C, Picard (1965), En Carthage de saint Augustin, Paris: Fayard.
- H, Lhote (1970), "Le peuplement du Sahara néolithique d'après l'interprétation des gravures et des peintures rupestres", Journal de la Société des Africanistes, tome 40, fascicule 2, p-p 91-102.
- Hérodote (1850), Histoires d'Hérodote, Paris: librairie éditeur.
- H-I, Marrou (1984), Histoire de l'éducation dans l'antiquité, tome 2, Paris: du seuil.
- N, Tlili (2000), "Les bibliothèque en Afrique romaine. Dialogues d'histoire ancienne", 26/1, p-p 151-174.
- P, Huard et L, Allard (1977), " Gravures rupestres du Tadrart Akakous (Libye S.W.)", Bulletin de la Société préhistorique française, tome 74, n°9, p-p 279-288.